المتكلم والمخاطب والغائب ومعنى الجنس أي المذكر والمؤنث)". يراجع: د. ريمون طحان: الألسنية العربية، ج1 ص62، ط2، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1981م.

(6) د. محمود السعران: علم اللغة: مقدمة للقارئ العربي، ص 107،دار النهضة العربية، بيروت (؟).

(7) المرجع السابق، ص 109.

(8) القراءات القرآنية: "علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الناقلة". يراجع: د. كامل موسى ود. علي دحروج: التبيان في علوم القرآن، ص342، ط2، دار بيروت المحروسة، بيروت 1415هـ/ 1995م.

(9) د. محمد الزحيلي: مرجع العلوم الإسلامية، ص 149، ط2، دار المعرفة، دمشق 1413هـ/ 1992م

مراتب الصوت اللغوي عند القدامى(الفخر الرازي نموذجا) .

الأستاذ : زغوان أمحمد.

إن هناك جملة من الدراسات اللغوية الحديثة المعاصرة ترفع ألوية ولافتات عريضة تعمل على التنظير لواقع الدرس اللغوي العربي بنية إعادة إنتاج التراث وقراءته قراءة معاصرة ناخلة، وبمستوى حداثي تفرضه طبيعة العصر والحياة بعيدا عن القراءات التبجيلية التي بقيت طوال الوقت تعيش في جلباب الآباء، وتنظر بعيون الأسلاف.

إلا أن هذا لا يمنعنا من القول أن هذا المضمون المشار إليه في هذا الاستهلال لا يعني إدارة الظهر للدرس التراثي بل على العكس يجب أن يكون حافزا لنا يجعلنا نعيد قراءة موروثنا الثقافي، ويطبّع علاقتنا معه حتى نضع أقدامنا على أرض صلبة ونضمن حدا راتبا من الثبات يعصمنا من الزلل في عالم المتغيرات والفرضيات العلمية المستحدثة التي كثيرا ما أصبحنا نلوكها دون أن نتمثلها، أو نصنع منها شيئا ذا صلة بواقعنا الفكري وخصوصيتنا الثقافية، خاصة وأن هذه المدارس الحديثة هي بنت ظروف وبيئة وثقافة مختلفة شئنا أم أبينا، وإن كنا لا ننكر توافرها على جانب مهم من المنجزات الإنسانية الحيادية القيم.

لهذا الغرض بدا لي أن أسهم بهذا العرض المتواضع، وأن أدل به على باب من أبواب الدرس العربي التراثي الذي أتصور أنه يشكو غربته بين أهله وناسه، لأن الكثير من القضايا التي أثارها القدامى في مباحث الدرس اللغوي لا زالت طي الإغفال تنتظر من ينفض عنها غبار رفوف المكتبات ، ويبعث فيها الحياة من جديد، إلا أني أخاف أن يكون سبب هذه الغفلة ضعف زادنا المعرفي في التعاطي الواعي والفاهم لما تركه أجدادنا من بحوث وعلوم ومعارف تخص هذا الشأن، ورحنا نغطي على هذا القصور بالجري واللهث وراء مناهج نعيش نتائجها في غيبة من مقدماتها، ونرضى أن نلعب دور المستهلك لا المنتج، والتلميذ لا الأستاذ، والمتلقي لا المعطي. واليد العليا خير من اليد السفلى .

وهو الهاجس الذي عبر عنه الأستاذ إدوار سعيد عندما يحيل على ما يساوره من شك في الحالة العربية على ما هي عليه من نسخ مباشر (ما أن يقرأ الواحد كتابا من تأليف فوكو أو غرامشي حتى يرغب في التحول إلى " غرامشوي " أو " فوكوي " .. نحن لا نزال تحت تأثير الغرب من موقع الدونية والتلمذية، . إلى أن يقول .: تأمل العدد الكبير من الأفراد في شمال إفريقيا في المستعمرات الفرنسية السابقة ممن يكتبون، وكأنهم تلامذة فوكو أو دريدا أو تودروف إنها نوع من فنتازيا التكرار التي أجدها مضحكة في معظم الحالات.
والقسط الأعظم منها راجع . في نظري، وهذا مجرد انطباع . إلى فهم ناقص لحقيقة الغرب " (1).

وعليه فإننا نحاول هنا أن نضع بين أيدي الأساتذة الأفاضل بعضا مما أتيحت لنا فرصة انتهازه مع كثرة المشاغل، واتساع أطراف البحث مما يثيره الفخر الرازي في مقدمة تفسيره الكبيرمن خلال تركيزه على الجوانب اللغوية قبل أن يخوض أبواب التفسير ومعالجة الدرس القرآني وتحليل الخطاب وقضاياه فهو يعمد ابتداء إلى تحقيق الكثير من المسائل اللغوية التي نتصور أنها ذات علاقة وطيدة بالمنهج اللغوي.

فنراه يستهل مقدمته باستهلال لغوي يحاول من خلاله أن يؤصل لطريقة البحث في الدرس القرآني انطلاقا من اللغة باعتبارها الوعاء الحاوي لأحكامه وتعاليمه ومبادئه ، ولأن النص القرآني يعلن عن ذاته بالنسبة للسان العربي، ويبين عن إعجازيته من خلاله، ولا طريق قصدا لبلوغ غاياته ومقاصده إلا بإحكام الوسيلة إليه

فالرازي باعتماد المنهج اللغوي في مقدمته يعمل على تجزئة البحث وتفكيك بنيته وتفريعها ليصل منها إلى تشكيل رؤية متكاملة جامعة لما يجد نفسه بصدده من بسط النقول ، ومعالجة الأقوال ومطارحة الآراء المختلفة.

فاللغة : عند تعريفه لها، وتحرير مدلولها اللفظي يقوم بحملها على قياسات مماثلة لها من باب حمل النظير على نظيره للدلالة على أصالته العربية.

فاللغة برأيه ككرة ، ومنه كروت بالكرة، ولغوت بمعنى تكلمت ومنه قوله تعالى : ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾ (2). ويتأثر دلالة اللغة باعتماد اشتقاقات القلب فيأخذ من لفظ " اللغة " أصولها المشكلة لها ، وهي على التوالي " ل. غ . و " ، وهذا هو الأصل، ويأتي منها الكلام اللغو، والعمل اللغو، ومنه غلو : ويقال لفلان غلو في كذا، ومنه الغلوة، ومنها " غول " لقوله تعالى: ﴿ لا فيها غول ﴾ (3)، ومن ذلك أيضا " و. غ . ل " يقال لفلان أوغل في كذا ، وأيضا ولغ الكلب في الإناء.

ويظهر في طريقته هاته كمن يبحث عن شيء يجد أثره في نفسه ولكنه لا يتبينه، ثم يخلص أخيرا إلى أن القدر المشترك بين جملة هذه التقليبات هو الإمعان في الشيء والخوض التام فيه (4).

وكأن الاستعمال اللغوي بمعناه والمتحصل من جملة التقليبات يحتفظ مضمونيا بما يتغيى من الوظيفة اللغوية التي نستعملها عندما نتحدث عن أي شأن من شؤون الحياة وجملة متعلقاتها، فيغدو حديثنا فيما بيننا، ومع ذواتنا كأنه ضرب من الإمعان في الأشياء بمجرد الخوض فيها قصدا إلى غاية الإتمام والإحاطة بالشيء حال جعله محور الكلام، وموضوع التعبير، وهذا ما تسفر عنه الوظائف المتحققة من استعمالاتنا اللغوية حتى دون أن ندري، فبمجرد الشروع في ممارسة إرادتنا التواصل طردا أو ردا تتحقق تلك الوظائف وتعلن عن نفسها من خلال حاجتنا للتعبير عما يختلج في الضمائر والخواطر وغير ذلك.

ويمكن أن نشير هنا إلى أن العربي خص لغته بإطلاق دلالة اللسان على الكلام اللغوي القاصد إلى تحصيل المعنى، وإرادته بعقد النية عليه، أي الوعي بالكلام الذي يضعك موضع المسؤولية، (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) (5) .

وهو المفهوم الذي يجسده النص القرآني ويقره حال الحديث عن اللغة الإنسانية الواعية بوعي الإنسان لها، ومنه قوله تعالى: (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) (6).

ويعلم كل ذي حس أن اللسان ليس المراد به هنا الألسن الجثمانية لأنها لا تختلف في الحيوان عنها في الإنسان المتكلم والأخرس على السواء، وإذا تقرر هذا فاللسان هو الكلام البشري الذي يتوافر على عنصر المعنى وعنصر القصدية.

ويقال أن الإنسان العربي كان يخص كلامه العربي بوصف اللسان، ويطلق توصيف اللغة على غير العربي من الكلام السامي.

والظاهر أن مدلولية اللغة فرضت نفسها في الاستعمال، وعادت لفظة تنصرف إلى العموم لتشمل ما يفيد وما لا يفيد مما هو ساقط من نصاب الاعتبار ولعل الأقرب لمثالنا هذا قوله تعالى ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ (7) " ولغى يلغى لغا إذا أتى بما لا يحتاج إليه في الكلام، أو بما لا خير فيه، أو بما يلغى إثمه، وقال الشاعر:

ولست بمأخوذ بلغو تقوله إذا لم تعمَّد عاقدات العزائم (8) " (9).

والمعنى يدور على جملة الكلام الذي لا تنعقد عليه القلوب وتعزم فيدخل في باب اللغو الذي لا مؤاخذة معه ولاشيء فيه أو يترتب عنه.

أما اللسان فهو يترجم عن نفسه من خلال شبكة من المفردات المنتظمة في أحزمة سياقية تتأسس على ما يعرف بالكلمات، والواضح أن تسمية الكلام باللسان متأتية له من طرق الجواز على قاعدة صرف معنى الوسيلة ليشمل الغاية. فالكلام غاية وإعراب عن الذات ومتعلقاتها البشرية : أفكار مشاعر عواطف.. ووسيلة ذلك كله في الجانب الحسي هو اللسان فأخذ الكلام الصادر بهذه الأداة اسمه وأصبح يعرف بعنوان اللسان من باب التغليب والأظهر وإلا فإن وسائط أخرى تدخل في الحدث الكلامي غير اللسان مثل الشفاه

والحلق والهواء المتسرب من الصدر والخيشوم ..

أما الأثر الظاهر والبادي من اعتماد اللسان لإنتاج ما يعرف باللهج باللغة، فهو يسفر عن نفسه من خلال أحزمة من المسموعات المحسوسة نتفق على تسميتها بالكلام .

ولمعرفة الأثر الكامن وراء احتياز لفظة (كلمة) فضل الإعراب عن مكونات التواصل التلاسني يراعي الرازي طريقة الاشتقاق ويعتمدها قبل تحرير دوال اللغة.

فالكلمة . من منظوره . ومن طريق الاشتقاق من " كلم " وهي بحسب تقاليبها الممكنة تفيد القوة والشدة، وعنده منها:خمسة معتبرة وواحدة منها مهملة وهو ما قد يدرج ضمن خانة ما يعرف بظاهرة الاحتفاظ اللغوي.

ثم يستعرض عناصر القلب بادئا بـ: كلم ⟵ كلاما وهو ما يقرع السمع ويؤثر فيه ، ويؤثر في الذهن لإفادة المعنى.

والكلام ⟵ ما غلظ من الأرض وفي الغلظة قوة وتأثير.

والكلم ⟵ الجرح وفيه من التأثير أيضا ما فيه ، ولعل منها ما يشاع من : أن جرح اللسان كجرح اليد لشدة أثره .

وكمل ⟵ الكامل أقوى من الناقص، والكمال عنصر قوة وشدة .

ولكم ⟵ الشدة في اللكم ظاهرا .

ومكل ⟵ ومنه بئر مكول إذا قل ماؤها وورودها مكروها فيحصل نوع شدة عند ورودها.

وملك ⟵ يقال ملكت العجين : أمعنت عجنه فاشتد وقوي ومنه ملك الإنسان لأنه نوع قدرة، وأملكت الجارية لأن بعلها يقدر عليها.

ومن دلالات الكلمة: القصيدة بأسرها "كلمة " وكلمة الشهادة، والكلمة الطيبة صدقة من باب المجاز وبيان ذلك أن :

أ).المركب: يتركب من المفردات فإطلاق لفظة كلمة على الكلام المركب يكون إطلاقا لاسم الجزء على الكل.

ب). الكلام الكثير المرتبط الأبعاض حصلت له وحدة فصار شبيها بالمفرد في تلك الوجوه، والمشابهة من أسباب حسن المجاز فيطلق لفظ الكلمة على الكلام الطويل لهذا السبب .

ولما كان الكلام مؤلفا من أجزاء من الكلمات صارت المفردة منه عنوانا لمجموعه.

وللزيادة في تقصي المعنى وتحقيق دلالته يذكر الرازي أن الكلمة في القرآن . أيضا . جاءت للتعبير عن مفهومين آخرين أحدهما ما يقال لعيسى أنه كلمة الله : إما لأنه حدث بقوله " كن " في زمن قليل كما تحدث الكلمة .

والثانية: أنه سمى أفعاله كلمات كما قال تعالى : (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي) (10) " (11).

والكلمة . كما يقول النحويون . غير الكلام الكلمة اللفظ المفرد، والكلام الجملة المفيدة.

ويتفق الأصوليون على أن الكلام يضاد الخرس والسكوت، وهذا من باب معرفة الشيء بنقيضه، فلا يدرسان إلا معا وحضور أحدهما داع لحضور الآخر، والتكلم بالكلمة الواحدة يضاد الخرس والسكوت فكان كلاما.

واشتقاق الكلمة من الكلم وهو الجرح والتأثير، وسماع الكلمة يشي بمعناها ، وهنا يحصل معنى التأثير فوجب أن يكون كلاما، ونلاحظ أن الخرس لا يتحصل منه معنى الكمال، ولا التأثير ولا القوة والشدة بل هو يتجه اتجاه عكسيا ينماز به عن ضديده.

ويتساءل الرازي عما إذا كان المتحدث بالكلمة يسمى متكلما ؟

ولما كان يصح أن يقال: فلان تكلم بهذه الكلمة الواحدة : فهذا دليل قائم على أن الكلمة الواحدة كلام . كما يصح أيضا من طريق الاستدلال العقلي أن يقال فلان تكلم بكلام غير تام : وفي هذا دليل آخر على أن حصول الإفادة التامة غير معتبر في اسم الكلام، وكأنه يعتبر أن وجه التلاقي بين اللغا واللسان في الكلام الذي ينصرف مدلوله إلى المعنيين بما أن الكلام يشمل المهمل والمستعمل، ويستوي في الدليل أن قلنا فلان تكلم بكلام مفهوم، أو قولنا تكلم بكلام غير مفهوم.

ولعل المهمل حصلت له هذه النسبة من تأثيره في السمع فيجتمع له معنى التأثير وحصول الكلام، وعدم الإفهام فهم على أن هذا الضرب من الكلام غير مفهوم.

ويعرض للرأي المخالف في الموضوع ويذكر أن من اللغويين من قال: الكلمة والكلام مختصان بالمفيد، وإن لم يلتزم هذا القيد لزم تجويز تسمية الطيور بالكلمة والكلام.

والظاهر أن هذا بحث آخر لأننا بصدد الحديث عن الكلام الإنساني تحديدا فهو وإن افتقد عنصر الإفادة على مستوى المضمون بمجموعه، لا يفتقدها بمفرداته وآحاده.

وأن الحديث عن لغة الطيور وغيرها كلام تجوزي لا يثبت أمام النقد العلمي .

ويثير الرازي في هذا المفصل من حديثه مسألة خلافية مؤداها: أنه إذا حصلت أصوات مركبة تركيبا دالا على المعنى باعتبار الطبعية لا الوضعية فهل يسمى مثل تلك الأصوات كلمة وكلاما كحال الإنسان المتوجع (

أخ)، وعند السعال (أح. أح) أليست أصواتا مركبة وحروفا مؤلفة دالة على معان مخصوصة لكن دلالتها على مدلولاتها بالطبع لا بالوضع فهل تسمى أمثالها كلمات " .

وإذا حررناها في سياق ما تقدم فإنها لا تعتبر كلاما فهي وإن حدثت بطريق تموجات في الفم، وخرجت من مخارج الحروف المعهودة في الكلمات، وأفادت معنى طبعيا غير وضعي: كوننا نقدر أن الناس يشتركون في التعبير بهذه الأحرف عن حالة مخصوصة ومحددة، إلا أنها تفتقد عنصر القصدية والوعي الكلامي .

ويحيل الرازي على ارتباط مسائل اللغة بالنص القداسي، وبأحكام الشريعة، وجهلها جهل بالطريق المؤدي إلى رحابها، وفقه تعاليمها، ويمثل لنا بإثارة مسألة فقهية خلاصتها أنه : إذا قال رجل لامرأته : إن كلمتك فأنت طالق ثلاث مرات، فهل يترتب على كلامه هذا حكم شرعي يقضي بوقوع الطلاق ؟ .

فيقول : إن ذكر هذا الكلام في المرة الثانية طلقت طلقة واحدة، وهل يتحقق هذا المعنى بحكمه بمجرد أن يتفوه بكلمة واحدة هي جزء من الجملة ؟ .

قال أبو حنيفة وصاحباه أن ذلك ينعقد بالجملة : لأن اسم الكلام اسم لكل ما أفاد شيئا دون إشراط تمام الفائدة، وإذا حصل الشرط حصل الجزاء أي (وقع الطلاق).

وتمام قوله : أنت طالق . وحجة أبي حنيفة إن كلمتك غير تام، والكلام اسم للجملة التامة. وخالف في ذلك زفر فحاصل كلامه أن الكلام يتناول الكلمة الواحدة " (12) . والخلاف حاصل في أصل الإفادة هل تنسحب على الكلام التام أو غير التام أو هما معا ؟ لقد اشترط المعتزلة في الكلمة الدلالة والإفادة، وأقل ذلك أن تكون مركبة من حرفين فصاعدا فنقض بعضهم قول بعض بأن أجاب أن: [قِ] و [عِ]. مركبان، وأصل ذلك أن يقال " قي " ، و " عي " بدليل أنه عند التثنية يقال " قيا " و " عيا " وأجيب عن هذا الجواب بأن هذا المعنى لا يصار إليه إلا تقديرا، أما الواقع فحرف واحد (13) .

وبعد أن يرصد الرازي دلالات الكلام في الحالة الفقهية ينقله إلى الدائرة الفلسفية ويتساءل مع أصحاب هذه النظرة هل الكلام قديم ؟.

لقد انقسم الباحثون من الكلامية على مذهبين

أ) .القائلون بحدثانه:

ذكروا أن الكلام المتركب من الحروف والأصوات يمتنع في بديهة العقل كونه قديما لوجهين:

1. الكلمة لا تكون كلمة إلا إذا كانت حروفها متوالية، فالسابق المنقضي محدث لأن ما ثبت عدمه امتنع قدمه، والآتي الحادث بعد انقضاء الأول لا شك أنه حادث .

2. الحروف التي منها تألفت الكلمة فإن حصلت دفعة واحدة لم تحصل الكلمة، ولو حصلت على التعاقب كانت حادثة .. فلو حصلت الحروف معا لم يكن وقوعها ممكنا فكان الفصل.

<u>القائلون بالقدم:</u>

يبنون رؤيتهم على ما يرونه حجة عقلية وأخرى نقلية:

العقل: فلكل واحد من هذه الحروف ماهية مخصوصة تميزها عما سواها، والماهيات لا تقبل الزوال ولا العدم. فكانت قديمة.

النقل: كلام الله قديم وكلام الله ليس إلا هذه الحروف فوجب القول بقدم هذه الحروف، فالكلام صفة كمال وعدمه صفة نقص، ولو لم يكن الكلام قديما لزم أن يقال إنه تعالى جده كان في الأزل ناقصا ثم صار فيما بعد كاملا، وذلك باطل بإجماع المسلمين ومن الأدلة النقلية قوله تعالى : ((وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله)) (14).

والمسموع ليس إلا هذه الحروف، ودل أن هذه الحروف كلام الله، وكذلك فإن من حلف على سماع كلام الله تعالى : فإنه يتعلق البر والحنث بسماع هذه الحروف ، ويزيد على هذا التدليل ما يروى عن النبي . صلوات الله عليه وسلم . من قوله : ((أن هذا القرآن المسموع المتلو هو كلام الله تعالى)) (15) .

وزعمت الحشوية أن هذه الأصوات هي عين كلام الله تعالى وهذا باطل بداهة ونعلم أن الأصوات والحروف المسموعة قائمة بلسان الإنسان وصوته، ويلزم هذا القول أهله أن الصفة الواحدة قائمة بذاته تعالى وحالة في بدن الإنسان ، وهذا عين ما يقوله النصارى: أن أقنوم الكلمة حلت في ناسوت صريح (عيسى)، ومع ذلك هي صفة لله تعالى وهذا عين ما يقوله الحشوية : أن كلام الله تعالى حال في لسان هذا الإنسان مع أنه غير زائل عن ذات الله تعالى .

الكرامية : يرون أن الكلام اسم للقدرة على القول بدليل أن القادر على النطق يقال إنه متكلم وضد الكلام الخرس (العجز). وعليه فكلام الله قديم أي قدرته على القول قديمة أما الكلام فحادث، وينبه على أن مباحث الحرف مرتبطة فقط بالصوت والعضلات الفاعلات للحروف ويذكر الإشكالات المذكورة في قدم القرآن من عدمه مسائل في غاية الدقة، وينبه إلى تعمده الإغضاء عنها، والأولى الاكتفاء بما ذكرناه (16) .

إن الكلام: عبارة عن فعل مخصوص يفعله الحي القادر لأجل أن يعرف غيره ما في ضميره من الإرادات والاعتقادات " وهو يؤشر هنا تحت الحاجة التعبيرية التي تنطبق عليها أحكام الطبع أكثر من أحكام الوضع، وعندما يظهر أن المراد من كون الإنسان متكلما بهذه الحروف فهو مجرد كونه فاعلا لهذا الغرض المخصوص، وأما الكلام الذي هو صفة قائمة بالنفس فهي صفة حقيقية كالعلوم والقدر والإرادات " (17).

ويفرع عن هذه اللفتة الحديث عن كلام النفس: فالمنكرون لهذا المذهب يرون أن الكلام اسم لهذه الألفاظ والكلمات.

أما المثبتون فيرون أن المعنى النفساني يسمى كلاما واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ (18) .

والظاهر أنهم ما كانوا كاذبين في اللفظ لأنهم أخبروا أن محمدا رسول الله وكانوا صادقين فيه، وعليه فهم كاذبون في كلام آخر سوى اللفظ ، وما هو إلا كلام النفس ، وعرض لما ينقض هذا القول، ويفترض أن يقول قائل : لا نسلم أنهم ما كانوا كاذبين في القول اللساني، بل أخبروا عن كونهم شاهدين له، قالوا ﴿ نشهد أنك لرسول الله﴾ ، والشهادة لا تحصل إلا مع العلم وهم ما كانوا عالمين به فثبت أنهم كانوا كاذبين، وهناك دليل أثري هو قول عمر بن الخطاب يوم السقيفة: كنت قد زورت في نفسي كلاما فسبقني إليه أبو بكر. وقال الأخطل :

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا. (19).

ويحيل هنا على الجانب الاعتباطي في المواضعات والاصطلاحات فبرأيه أن لا معنى هناك للكلام اللساني على الحقيقة إلا الاصطلاح من الناس على جعل هذه الأصوات المقطعة والحروف المركبة معرفات لما في الضمائر، ولو قدرنا أنهم كانوا قد تواضعوا على جعل أشياء غيرها معرفات لما في الضمائر لكانت تلك الأشياء كلاما أيضا، وإذا كان كذلك لم يكن الكلام صفة حقيقية مثل العلم والقدرة والإرادة بل أمرا وضعيا اصطلاحيا " (20) .

والترجمة ليست عين كلام الناس، وليست في حالة القرآن قرآنا وبالتالي فلا تجوز الصلاة بها.

والمسألة الأخرى والتي هي على درجة من الاهتمام في الحدث الكلامي فيما يذكره الرازي هو مبحث **الألفاظ** :

فهو يذكر أن إطلاق اللفظ على هذه الأصوات والحروف على سبيل المجاز، وذلك لأنها إنما تحدث عند إخراج النفس من داخل الصدر إلى الخارج، فالإنسان عند إخراج النفس من داخل الصدر إلى الخارج يحبسه في المحابس المعينة ثم يزيل ذلك الحبس فتتولد تلك الحروف في آخر زمان حبس النفس وأول إطلاقه .

ويعمد إلى التخريج الدلالي باعتماد اشتقاقات القلب فاللفظ الرمي، وهذا المعنى حاصل في هذه الأصوات والحروف من وجهين :

1) . الإنسان يرمي ذلك النفس من داخل الصدر إلى خارجه ويلفظه، وذلك هو الإخراج، واللفظ سبب لحدوث هذه الكلمات فأطلق اسم اللفظ على هذه الكلمات لهذا السبب.

2). تولد الحروف بسبب لفظ الهواء من الداخل إلى الخارج صار ذلك شبيها بالحالة التي يلفظ فيها الإنسان تلك الحروف ويرميها من الداخل إلى الخارج والمشابهة إحدى أسباب المجاز " (21) .

وينقسم اللفظ بحسب أوضاعه إلى قسمين :

أ). اللفظ المفرد: لا يدل شيء من أجزائه على شيء من المعاني البتة: كقولنا فرس . جمل .

ب) اللفظ المركب: أن لا يدل شيء من أجزائه على شيء أصلا حين هو جزؤه، أما باعتبار آخر فإنه يحصل لأجزائه دلالة على المعاني كقولنا : عبد الله فإذا اعتبرنا هذا المجموع اسم علم لم يحصل لشيء من أجزائه دلالة على شيء أصلا .

أما إذا جعلناه مضافا ومضاف إليه، فإنه يحصل لكل واحد من جزئيه دلالة على شيء آخر غير الدلالة العلمية .

ج) اللفظ المؤلف: أن يحصل لكل واحد من جزئيه دلالة على مدلول آخر على جميع الاعتبارات كقولنا: العالم حادث . السماء كرة.

فالمعنى الذي يتحدث الرازي عنه هو المعنى الذي في مستوى البنية أو التركيب، والعبرة بمآلات الألفاظ حال تآلفها وتأديتها لمضمون واضح صريح يكون المتكلم فيه هو اللاعب الفاعل لا ما يمكن أن يفهمه المتلقي عنه بحسب تأويله هو بعيدا عن الطرف الشريك في العملية التواصلية .

والإحالة الإفادية في اللفظ ذات مستويات :

1. اللفظ مؤلف + المعنى مؤلف = الإنسان حيوان. غلام زيد.
2. اللفظ مفرد + المعنى مفرد = الوحدة. النقطة .
3. اللفظ مفرد + المعنى مؤلف = إنسان [اللفظ مفرد والمعنى ماهية مركبة من أمور كثيرة] .
4. اللفظ مركب + المعنى مفرد = محال (الاستحالة) . " (22).

الفرق بين الإفتراد والتركيب: الإشكال المذكور في المفرد غير حاصل في المركب لأن إفادة الألفاظ المفردة لمعانيها وضعية.

أما التركيبات فعقلية: والعقل يتوصل بتلك التركيبات العقلية إلى تلك المركبات فالفرق ظاهر، فعملية التركيب الدلالي مشحونة بكم وافر من الفكر الذي ينضح بشبكة من المفاهيمية هي وليدة البيئة والثقافة والمحيط المجتمعي.

دلالة الألفاظ على مدلولاتها :

1) الدلالة الطبيعية:

دلالة الألفاظ على مدلولاتها ليست ذاتية خلافا لمن يرى أنها تتغير باختلاف الأمكنة والأزمنة. والذاتيات لا تكون كذلك، وحجتهم أن هذا التوافق حصل وفق مناسبات مخصوصة بين الألفاظ المعينة والمعاني المعينة، ولعل من أظهر هذا التناسب ما يقول به أصحاب النظرية الطبيعية من أن الألفاظ اكتسبت صفاتها المعنوية من الطبيعة، وكون الإنسان نحتها من أصواتها مثل الزقزقة للعصافير، والرقرقة لصوت الماء، والزئير لصوت الأسد وغيرذلك .. وقد يتفق في بعض الألفاظ كونه مناسبا لمعناه مثل تسميتهم القطا بهذا الاسم لأن هذا اللفظ يشبه صوته، وكذا القول في اللقلق، ووضع لفظ الخضم لأكل الرطب، نحو البطيخ والقثاء، ولفظ القضم لأكل اليابس نحو قضمت الدابة شعيرها.

2. الدلالة التوقيفية :

يرجح الرازي القول بها ويذهب مذهبها سواء على مقالة من قال أن الله تعالى هو الذي ابتدأها وعلمها آدم، أو سواء قلنا أن هناك أقواما سبقوه فعلمه لغتهم أو قلنا أقدره على التواضع عليها بأن يخلق علما ضروريا في القلب بأن واضعا وضع هذا اللفظ لهذا المعنى من غير أن يخلق بأن ذلك الواضع هو الله تعالى ، ففي كل الأحوال يتفق هذا القول مع النظرة التوقيفية للغة ونسبتها لله تعالى، وهذا حل توفيقي: يستجيز مع ضعف الدلائل أن تكون كل اللغات توقيفية وأن تكون كلها اصطلاحية،وأن يكون بعضها توقيفيا،وبعضها اصطلاحيا "

وهنا يقف الرازي ليحقق في علاقة الدال بالمدلول وما وجه القول فيها ؟ .

علاقتة الدال بالمدلول: اللفظ المفرد لا يفيد البتة مسماه لأنه ما لم يعلم كون تلك اللفظة موضوعة لذلك المعنى لم يفد شيئا ، لكن العلم بكونها موضوعة لذلك المعنى علم بنسبة مخصوصة بين ذلك اللفظ وذلك

المعنى (علاقة مناسبة). والعلم بالنسبة المخصوصة بين أمرين مسبوق بكل واحد منهما، فلو كان العلم بذلك المعنى مستفادا من ذلك اللفظ لزم الدور وهو محال. ويجيب الرازي : يحتمل أنه إذا استقر في الخيال مقارنة بين اللفظ المعين والمعنى المعين فعند حصول الشعور باللفظ ينتقل الخيال إلى المعنى وحينئذ يندفع الدور.

وهو هنا يتصور أن المعاني أسبق من الألفاظ لأننا لا نستعمل من اللفظ إلا ما استقر في أذهاننا أنه موضوع لهذا المعنى، ولذلك يجد المرء نفسه في حال الكتابة مثلا يفاضل بين لفظ وآخر، ويقدم هذا على ذاك، ونحن مثلا نطلق على الجنين هذا الاسم الذي يدل على المضمر والمخفي، وهذا قبل استهلاله بل يبدأ الوالدان بالبحث عن الاسم المختار أي اللفظ له من بين مئات الأسماء ليصبح فيما بعد دالا عليه، والفكر هو الذي يربط بين اللفظ ومعناه برابط من التناسب، وذلك مثل ما يقال من أن العرب في الجاهلية سمت أبناءها بالمستبشع من الأسماء إرهابا لأعدائها مثل : مقاتل، ظالم، سيف، وسمت غلمانها لأنفسها مثل ميسرة، سهل، نور.

وسمت الصحراء بالمفازة تفاؤلا باجتيازها، والقافلة تفاؤلا بعودتها، والعطشان بالريان تفاؤلا له بأنه سيروى من عطشه وغير ذلك ..

ولكن ما وجه التناسب بين الدلالة والصورة الذهنية .

<u>الدلالـتة والصورة الذهنيــة:</u>

للألفاظ دلالات على ما في الأذهان لا على ما في الأعيان، ولذا يقال الألفاظ تدل على المعاني. لأن المعاني هي التي عناها العاني، وهي أمور ذهنية والدليل على ما ذكرناه:

1. إذا رأينا جسما من البعد وظنناه صخرة قلنا إنه صخرة، فإذا قربنا منه وشاهدنا حركته وظنناه طيرا قلنا: إنه طير، فإذا ازداد القرب علمنا أنه إنسان فقلنا إنه إنسان، فاختلاف الأسماء عند اختلاف التصورات الذهنية يدل على أن مدلول الألفاظ هو الصور الذهنية لا الأعيان الخارجة.
2. اللفظ لو دل على الموجود الخارجي لكان إذا قال إنسان العالم قديم ، وقال آخر العالم حادث لزم كون العالم قديما حادثا وهو محال.

أما إذا قلنا إنها . الألفاظ . دالة على المعاني الذهنية كان هذان القولان دالين على حصول هذين الحكمين من هذين الإنسانين وذلك لا يتناقض، لأن حضور الحكمين ليس له حضور في العالم الخارجي، ولا تأثير له على الحقيقة بل هو مجرد وجهة نظر تحتمل الصواب، وتحتمل الخطأ .

وهذا المعنى يحيل على نسبية الألفاظ من الحقيقة وقصورها عن استغراقها.

<u>قصـور الألفـاظ</u>: لا يمكن أن تكون جميع الماهيات مسميات بالألفاظ لأن الماهيات غير متناهية وما لا نهاية له لا يكون مشعورا به على التفصيل، وما لا يكون مشعورا به امتنع وضع الاسم بإزائه ويمثل لذلك بأننا لا ندرك الفرق بين حلاوة الطعوم بواسطة اللفظ أو لفظة مخصوصة، وقد يخفى المعنى مع شهرة اللفظ فالحركة لفظة مشهورة، وكون الجسم منتقلا من جانب إلى جانب أمر معلوم لكل أحد، والخفاء يلف المعنى الموجب لذلك الانتقال، والحركة اسم لنفس هذا الانتقال لا المعنى الموجب له..

وبعد الحديث عن اللفظ يتناول قضية على قدر كبير من الأهمية وهي قضية الصوت على اعتبار أن اللفظ يتحصل معنى بواسطة جسم مادي هو الصوت، فهو يتلبس به ويتحقق من خلاله .

الصوت:

يكون النَّفَسُ عند الإخراج سببا لحدوث الصوت، والأصوات عند تقطيعاتها أسباب لحدوث الحروف المختلفة، وتحصل هذه المعاني من غير كلفة ومعونة بخلاف الكتابة والإشارة وغيرهما.

توجد الأصوات عند الاحتياج إليها، وتفنى في الحال عقيب زوال الحاجة، وتحدث الأصوات تبعا للتقطيعات في مخارج الحروف وتكثر توالدا، وتتآلف الحروف لتولد كلمات لا حصر لها، وتلبس المعاني الألفاظ في غير اشتباه والتباس، وهذا مفقود في الإشارة والتصفيق، وقضت العقول السليمة أن أحسن تعريفات لما في القلوب هي الألفاظ " .

منـازل الصـوت ؟ .

يصرف الهواء الخارج من الصدر خالقا محابس، ومقاطع للصوت في الحلق واللسان والأسنان والشفتين، ويحدث بسبب ذلك هذه الحروف المختلفة، وأودع في هذا النطق والكلام حكما عالية وأسرارا باهرة (23) "

ولا يصح عند الرازي أن يقال: الكلمة صوت لأن الصوت ينقسم إلى أصوات الحيوان وإلى غيره، وصوت الإنسان ينقسم إلى ما يحدث من حلقه وإلى غيره، والصوت الحادث من الحلق ينقسم إلى ما يكون حدوثه مخصوصا بأحوال مخصوصة مثل هذه الحروف وإلى ما لا يكون كذلك مثل الأصوات الحادثة عند الأوجاع والراحات والسعال وغيرها، فالصوت جنس بعيد واللفظ جنس قريب، وإيراد الجنس القريب أولى من الجنس البعيد " (24) .

الصـوت. الحـرف. الحركـة

إذا قلنا في الحرف أنه متحرك أو ساكن فهو مجاز لأن الحركة والسكون من صفات الأجسام، والحرف ليس بجسم بل المراد من حركة الحرف صوت مخصوص يوجد عقيب التلفظ بالحرف، والسكون عبارة عن أن يوجد الحرف من غير أن يعقبه ذلك الصوت المخصوص المسمى بالحركة .

والحركات ليست بحركة في نفسها، إنما أصوات يتلفظ بها فالمتكلم لما انتقل من الحرف الصامت إلى هذا الحرف، فهذا الحرف المصوت إنما حدث لجريان نفسه وامتداده فلهذا السبب صحت تسميته بالمجرى "(25) .

فنحن بالواقع لا نسمع الحركة ولا الحرف ولكن نسمع الصوت أو عملية التصويت بهما على وجه مخصوص يمايز بينهما.

كيفيـة حدوث الصـوت:

الصـوت: سببه القريب تموج الهواء ، وسبب تموج الهواء إمساس عنيف (القرع)

وحدّ الشيخ الرئيس الحرف: بأنه هيئة عارضة للصوت يتميز بها عن صوت آخر مثله في الخفة والثقل تميزا في المسموع،. والحروف :

1. مصوتة : تسمى في النحو حروف المد واللين ولا يمكن الابتداء بها، وهي من الهيئات العارضة للصوت.

2. صامتة : وهي ما عداها ومنها ما لا يمكن تمديده كالباء والتاء والذال والطاء وهي لا توجد إلا في الآن الذي هو آخر زمان حبس النفس وأول زمان إرساله وهي بالنسبة إلى الصوت كالنقطة بالنسبة إلى الخط ، والآن بالنسبة إلى الزمان، وهذه الحروف ليست بأصوات ولا عوارض أصوات، وإنما هي أمور تحدث في مبدأ حدوث الأصوات وتسميتها بالحروف حسنة لأن الحرف هو الطرف، وهذه الحروف أطراف الأصوات ومباديها، ومن الصوامت ما يمكن تمديدها بحسب الظاهر ثم هذه على قسمين: منها ما يغلب الظن فيها أنها آنية الوجود في نفس الأمر وإن كانت زمانية بحسب الحس (الحاء الخاء ..) تأتي آنية متوالية كل واحد منها آني الوجود في نفس الأمر، لكن الحس لا يشعر بامتياز بعضها عن بعض فيظنها حرفا واحدا زمانيا.

ومنها ما الظن الغالب كونها زمانية في الحقيقة (كالسين والشين) فإنها هيئات عارضة للصوت مستمرة باستمراره .

- الحرف لا بد أن يكون إما ساكنا أو متحركا ، ولا نريد به حلول الحركة والسكون فيه لأنهما من صفات الأجسام بل المراد أن يوجد عقيب الصامت بصوت مخصوص.
- الحركات أبعض المصوتات والتي هي أسبق منها بدليل أن التكلم بالحركات موقوف على التكلم بالصوامت.

<u>تخريج :</u>

الأصل في قولنا الله وهي ستة حروف فلما أبدلوه بقولهم " الله " بقيت أربعة أحرف في الخط (همزة . لامان . هاء). الهمزة في أقصى الحلق، اللام طرف اللسان. الهاء أقصى الحلق وهي إشارة إلى حالة عجيبة فإن أقصى الحلق مبدأ التلفظ بالحروف ثم لا يزال يترقى قليلا قليلا إلى أن يصل إلى طرف اللسان ثم يعود إلى الهاء الذي هو في داخل الحلق فكذلك العبد يبتدي من أول حالته التي هي حالة النكرة والجهالة ويترقى قليلا قليلا في مقامات العبودية ، وكما قيل النهاية رجوع إلى البداية " (26).

<u>مراتب الموجودات ثلاثة:</u>

1. مؤثر لا يتأثر وهو الأقوى (درجة الفاعل وجعلوا له الرفع على اعتبار أنه أقوى الحركات ولأنه أقوى الأجسام.
2. متأثر لا يؤثر وهو الأضعف (درجة المفعول وضعوا له الفتح أضعف الحركات، وأضعف الأقسام).
3. وثالث يؤثر باعتبار ويتأثر باعتبار ويتأثر وهو المتوسط وهو درجة المضاف إليه والحركات أيضا ثلاثة أقواها الضمة وأضعفها الفتحة، وأوسطها الكسرة فألحقوا كل نوع بشبيهه " (27).

مدلـول العبـارة

يعمد إلى تحقيقها وفق آلية الاشتقاق الأكبر فيرى أن فعل [ع. ب . ر] تحتمل ستة تقاليب كلها تفيد معنى العبور والانتقال.

1. عبر من العبارة ويتكلم الإنسان بها، وينتقل من حرف إلى آخر، وكأنه بسبب تلك العبارة ينتقل المعنى من ذهن نفسه إلى ذهن السامع.
2. العَبْرة : الدمعة الدمعة تنتقل من داخل العين إلى الخارج.
3. العبر: الإنسان ينتقل فيها من الشاهد إلى الغائب.
4. المعبر: ينتقل الإنسان بواسطته من أحد طرفي النهر إلى الثاني.
5. التعبير : ينتقل مما يراه في النوم إلى المعاني الغائبة.
6. عرب: والعرب لكثرة انتقالهم بسبب رحلة الشتاء والصيف ومنه فلان أعرب في كلامه لأن اللفظ قبل الإعراب يكون مجهولا ، فإذا دخله الإعراب انتقل إلى المعرفة والبيان.
7. برع في كذا. تكامل وتزايد .
8. بعر : البعر لكونه منتقلا من الداخل إلى الخارج.
9. الخامس : رعب للخوف رعب لأن الإنسان ينتقل عند حدوثه من حال إلى أخرى.
10. والسادس: ربع الربع ينتقل الناس منه وإليه. (28).

فدلالة العبارة لا تختلف عن النسيج العام الذي تحيل عليه جملة مفردات الاصطلاحات اللغوية من كلمة، وحرف، وصوت، ولفظ وغيرها مما هو ضمن قاموس الاستعمال الدلالي في اللغة.

وفي الختام أريد الإشارة إلى أني سعيت إلى التنبيه على الضرورة تولية الجهود اللغوية عند القدامى العناية التي تستحق، وأن نضعها الموضع اللائق بها، وأن نستفيد منها في مقارباتنا المتجهة رأسا إلى تركيز الاستفادة من المناهج الغربية، والنظر إلى ما عندنا من تراث وكأنه غير موجود، ونكون بمثل هكذا خطوات نتنكر لذاتنا، ولا يمكن أن نخدم مشروعنا النهضوي الذي نتشوف إليه.

فالغرب في نهضته التجديدية عمل على إحياء تراث أثينا وإسبارطة وروما فلماذا لا نتسي به ونعيد إحياء تراث مكة والمدينة وبيت المقدس ويالها من رموز لو أحسنا التقاط خيوطها وتعاطينا معها بوعي وفاعلية، دون أن يمنعنا هذا من الإفادة من المنجزات الإنسانية الحيادية القيم عند جميع الأمم وفي مختلف الثقافات، فالحكمة ضالة المؤمن. دون أن نبقى طوال الوقت مسكري الأبصار، مشدودين إلى ما حققه الآخرون إلى حد الإبهار وسلب الذات دون أن نصنع شيئا لأنفسنا ولا لأجيالنا القادمة التي ستقف علينا ذات زمان من خلال تركتنا الثقافية والفكرية في بطون كتبنا ومجلداتنا . بعد أن نغادر . فتقف على حجم الإفلاس الذي أصابنا فلا تترحم علينا هذا إذا لم .....

الهـوامش

(1) . حوار: الهويات تعددية والمنفى حقل كريم www .ALKARMEL.ORG

(2) . الفرقان. [72]

(3) . الواقعة [47].

(4) التفسير الكبير. الفخر الرازي . دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. لبنان . الطبعة (2). 1983م. ج36/1.

(5) . ق. [18].

(6) . إبراهيم [04].

(7) . البقرة [225].

(8) . البيت للفرزدق من قصيدة قالها في قتل قتيبة بن مسلم، وقتل وكيع بن حسان، ومدح سليمان بن عبد الملك [ينظر الديوان. دار الكتب العلمية. بيروت. ص 611. . والأغاني. ج21/ 307.

(9) .الجامع لأحكام القرآن.القرطبي. مطبعة دار الكتب المصرية. القاهرة. مصر.1933م..ج99/3.

(10) . الكهف [109].

(11) . التفسير الكبير . ج1/ ص 22 وص23 .

(12) . المصدر السابق. ص 25. ص 26.

(13) . المصدر السابق. ص 29.

(14) . التوبة. [06].

(15) . المصدر السابق. ص 38.

(16) . " " . ص 39. ص. 40.

(17) . " " .ص 34.

(18) . المنافقون [01].

(19) . " " .ص 27. وما بعدها.

(20) . " " .ص 34.

(21) . " " .ص 24.

(22) . " " .ص 28 وما بعدها .

(23) . " " .ص 30 و 31. 32. 33 .

(24) ." " .ص 52.

(25) . " " .ص 55.

(26) . " " .ص 37 و 38. و39.

(27) . " " .ص 60.

(28) . " " .ج 1/ ص 24.